تطريز

الكلام على سورة النصر

المعروف بـ: «تفسير سورة النصر»

تصنيف الحافظ
عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الدمشقي الحنبلي
المتوفى سنة (٧٩٥) رحمه الله تعالى

منقول من التسجيل الصوتي للشيخ الدكتور
صالح بن عبد الله بن حمد العصيمي
غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين

النسخة الأولى

حقوق الطبع محفوظة

لا يسمح بطبع التّفريغ للأغراض التّجاريّة
أو ترجمته أو اختصاره دون موافقة خطّيّة

للإعلام بخطأٍ طباعيٍّ أو الاستدراك أو إبداء رأيٍ؛

يُرجى المراسلة على البريد الآتي : Abdellahdj24@gmail.com

سلسلة شروح وتطريزات فضيلة الشيخ (١٢٣)

تطريز

الكلام على سورة النصر

المعروف بـ: «تفسير سورة النصر»

تصنيف الحافظ

عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الدمشقي الحنبلي

المتوفى سنة (٧٩٥) رحمه الله تعالى

منقول من التسجيل الصوتي للشيخ الدكتور

صالح بن عبد الله بن حمد العصيمي

غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين

النسخة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّنا، وأشــهد ألَّا إله إلا الله وحدَه لا شــريك له، وأشــهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله.

أمَّا بَعْدُ:

فهذا هو (**الدَّرس السَّــادس والعشــرون**) من (**برنامج الدَّرس الواحد الثَّاني**)، والكتاب المقروء فيه هو «**الكلام على ســورة النَّصــر**»، للعلَّامة أبي الفَرَج ابن رجبٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقبل الشُّروع في إقرائه لا بدَّ من ذكر مقدِّمتين اثنتين:

المُقَدِّمَةُ الأُولَى: التَّعْرِيفُ بالمُصَنِّفِ

وتنتظم في ثلاثة مقاصدَ:

● المقصد الأوَّل: جرُّ نسبه:

هو الحافظ الكبير، والمحقِّق النِّحرير، عبد الرَّحمن بن أحمدَ بن رجبٍ السَّلَمِيُّ الدِّمشقيُّ ثمَّ البغداديُّ، يُكنَى بـ(أبي الفَرَج)، ويُعرَف بـ(زَين الدِّين)، وبـ(ابن رجبٍ)، وبالثَّاني اشتَهر.

● المقصد الثَّاني: تاريخ مولده:

وُلِد صبيحة الخامس عشر من ربيعٍ الأوَّل، سنة ستٍّ وثلاثين وسبعمائةٍ (٧٣٦).

● المقصد الثَّالث: تاريخ وفاته:

تُوفِّي رَحِمَهُ ٱللَّهُ سنة خمسٍ وتسعين وسبعمائةٍ (٧٩٥)، وله من العمر تسعٌ وخمسون سنةً، رَحِمَهُ ٱللَّهُ رحمةً واسعةً.

المُقَدِّمَةُ الثَّانِيَةُ: التَّعْرِيفُ بالمُصَنَّفِ

وتنتظم في ثلاثة مقاصدَ أيضًا:

- **المقصد الأوَّل: تحقيق عنوانه:**

الَّذي يدلُّ عليه تنصيص مَن ترجم المصنِّفَ – كابن عبد الهادي الصَّغير – مع ما وُجِد للكتاب من نسخٍ خطِّيَّةٍ هو أنَّ اسم هذا الكتاب «الكلام على سورة النَّصر»؛ فهو اسمه الَّذي سمَّاه به مصنِّفه – فيما يظهر –، وكأنَّ المعتني به لمَّا نشره عَدَل إلى تسميته بـ«تفسير سورة النَّصر» لأنَّه أظهرُ في الدَّلالة على المقصود.

- **المقصد الثَّاني: بيان موضوعه:**

موضوع هذا الكتاب: تفسير سورةٍ شريفةٍ، هي سورة النَّصر.

- **المقصد الثَّالث: توضيحُ منهجه:**

إنَّ هذا الكتاب اللَّطيف مثالٌ نفيسٌ على التَّفسير بالمأثور؛ فقد اعتنى المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ بتتبُّع الأحاديث والآثار المتعلِّقة بتفسير السُّورة.

واشتمَل على الصِّناعة الحديثيَّة في الحكم على عددٍ من الأحاديث، مع نَفَسٍ متميِّزٍ في السُّلوك والرَّقائق، هو النَّفَس الَّذي عُرِف به أبو الفَرَج ابن رجبٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

ٱلْكَلَامُ عَلَى سُورَةِ ٱلنَّصْرِ

جاء في حديثٍ أنَّها «**تَعْدِلُ رُبُعَ القُرْآنِ**».

وهي مدنيَّةٌ بالاتِّفاق؛ بمعنى أنَّها نزلت بعد الهجرة إلى المدينة.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

هذا الَّذي ذكره أبو الفَرَج رَحِمَهُ ٱللَّهُ من بيان معنى (المدنيِّ) هو أصحُّ الأقوال فيه؛ **وهو أنَّ الفرقان بين المكِّيِّ والمدنيِّ**: تعليق الأمر بهجرة النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فما نزل بعد الهجرة إلى المدينة فهو (مدنيٌّ) ولو نزل بغيرها، كما أنَّ ما أُنزِل من القرآن قبل الهجرة فهو (مكِّيٌّ) ولو أُنزِل خارج مكَّةَ.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وهي من أواخر ما نَزل.

وفي «صحيح مسلمٍ» عن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «آخر سورةٍ نزلت من القرآن جميعًا: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾».

واختُلف في وقت نزولها؛ فقيل: نزلت في السَّنة الَّتي تُوفِّي فيها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفي «مسند الإمام أحمدَ» رَحِمَهُ اللَّهُ عن محمَّد بن فُضيلٍ، عن عطاءٍ، عن سعيد بن جُبيرٍ، عن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: لمَّا نزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نُعِيَتْ إِلَيَّ نَفْسِي بِأَنَّهُ مَقْبُوضٌ فِي تِلْكَ السَّنَةِ**»[1].

عطاءٌ هو ابن السَّائب، اختَلط بأخرةٍ.

ويشهد له ما أخرجه البزَّار في «مسنده» والبيهقيُّ من حديث موسى بن عُبيدةَ، عن عبد الله بن دينارٍ وصدقةَ بن يسارٍ، عن ابن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «نَزلت هذه السُّورة على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمِنًى وهو في أوسط أيَّام التَّشريق في حجَّة الوداع: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾؛ فعَرف أنَّه الوداع؛ فأَمر براحلته القَصواء فرُحِلت له، ثمَّ ركب، فوقف للنَّاس بالعَقَبة، فحمد الله وأثنى عليه»، وذكر خطبةً طويلةً.

---

(١) روايتُه بهذا اللَّفظ مرفوعًا إلى النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غير محفوظةٍ، وإنَّما **المحفوظ** أنَّه من قول ابن عبَّاسٍ موقوفًا عليه، وسيذكره المصنِّف فيما يُستقبَل من رواية هلال بن خَبَّابٍ، عن عكرمةَ، عن ابن عبَّاسٍ موقوفًا من كلامه، لم يرفعه إلى النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

هذا إسنادٌ ضعيفٌ جدًّا.

وموسى بن عُبيدةَ: قال أحمدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا تحلُّ عندي الرِّواية عنه»[1].

وعن قتادةَ قال: «عاش رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعدها سنتين».

وهذا يقتضي أنَّها نَزلت قبل الفتح؛ وهذا هو الظَّاهر؛ لأنَّ قوله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ يدلُّ دلالةً ظاهرةً على أنَّ الفتح لم يكن قد جاء بعدُ؛ لأنَّ ﴿إِذَا﴾ ظرفٌ لِما يُستقبَل من الزَّمان؛ هذا هو المعروف في استعمالها، وإنْ كان قد قيل: إنَّها تجيء للماضي؛ كقوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ [الجمعة:١١]، وقوله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ [التَّوبة:٩٢]، وقد أُجِيب عن ذلك بأنَّه أُرِيد أنَّ هذا شأنُهم ودَأْبُهم، لم يُرِد به الماضي بخصوصه.

وسنذكر أنَّ النَّبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال بعد نزول هذه السُّورة: «**جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالفَتْحُ، وَجَاءَ أَهْلُ اليَمَنِ**»؛ ومجيء أهل اليمن كان قبل حجَّة الوداع.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

المختار من هذين القولين أنَّ سورة النَّصر نزلت قبل الفتح؛ وهذا هو الظَّاهر

---

(١) قول الحفَّاظ - كأحمدَ هاهنا، ويُضارِعه جماعةٌ - عن راوٍ: (لا تحلُّ عندي الرِّواية عنه) جرحٌ شديدٌ؛ لأنَّه عندهم صار بمنزلة من يَحرُم نقل حديثه.

وإنَّما يتفوَّهون بمثل هذا في حقِّ من اشتدَّ ضعفُه وبان تخليطه؛ كموسى بن عُبيدةَ الرَّبَذيِّ هذا؛ فإنَّه شديد الضَّعف.

المتبادِر من الآية؛ لأنَّ المستقرَّ في (إذا) عند أهل العربيَّة أنَّها (ظرفٌ لِما يُستقبَل من الزَّمان)، ولا يُعدَل عن المعروف في استعمالها إلى غيره إلَّا بحجَّةٍ ظاهرةٍ، ولا حجَّةَ هاهنا.

فالأقربُ أنَّ وقت إنزالها كان قبل الفتح؛ حتَّى يكون الامتنان بالنَّصر والفتح ظاهرًا.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تَعَالَىٰ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾: أمَّا (نصر الله) فهو معونته على الأعداء حتَّى غلب النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العربَ كلَّهم، واستولى عليهم، من قريشٍ وهوازنَ وغيرهم.

وذكر النَّقَّاش عن ابن عبَّاسٍ أنَّ (النَّصر) هو صلح الحُديبية.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

لا شكَّ أنَّ صلح الحديبية نصرٌ، لكنَّ الظَّاهر - كما سبق من كونها نزلت قبل الفتح، المقتضي لكونِها نزلت بعد صلح الحديبية - أنَّ (النَّصر) الممتنَّ به هنا هو نصر الله عَزَّوَجَلَّ للنَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على العرب قاطبةً؛ فإنَّه لمَّا دانت للنَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قريشٌ ودخلوا في دين الله وظهر عليهم، دانت العربُ للنَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإنَّهم كانوا ينتظرون ظهوره على قومه، وقالوا: (إن ظهر عليهم فهو نبيٌّ صادقٌ)؛ فكان هذا هو النَّصر العظيم الَّذي ادُّخِر للنَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وأمَّا (الفتح): فقيل: هو فتح مكَّةَ بخصوصها.

قال ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وغيره: «لأنَّ العرب كانت تنتظر بإسلامها ظهور النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على مكَّةَ».

وفي «صحيح البخاريِّ» عن عمرو بن سَلَمةَ قال: «لمَّا كان الفتح بادر كلُّ قومٍ بإسلامهم إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكانت الأحياء تَلَوَّمُ بإسلامها فتح مكَّةَ؛ فيقولون: دعوه وقومه؛ فإن ظهر عليهم فهو نبيٌّ».

وعن الحسن قال: «لمَّا فتح رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكَّةَ قالت العرب: أمَّا إذا ظفر محمَّدٌ بأهل مكَّةَ وقد أجارهم الله من أصحاب الفيل فليس لكم به يَدان؛ فدخلوا في دين الله أفواجًا».

وقيل: إنَّ (الفتح) يعمُّ مكَّةَ وغيرها ممَّا فُتِح بعدها من الحصون والمدائن؛ كالطَّائف وغيرها من مدن الحجاز واليمن وغير ذلك؛ وهو الَّذي ذكره ابن عطيَّةَ.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

المختار أنَّ (الفتح) هاهنا هو فتح مكَّةَ، وأمَّا ما كان بعده من أمر (الحصون والمدائن - كالطَّائف وغيرها من مدن الحجاز واليمن وغير ذلك -) فإنَّها سُلِّمت للنَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجاء أهلُها طائعين راغمين، بخلاف الإرغام والأخذ بالغَلَبة، فقد جرى هذا مع أهل مكَّةَ؛ فكان الفتح مخصوصًا بهم - على الأقرب.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله: ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢﴾: المراد بـــ(النَّاس): العموم - على قول الجمهور -، وعن مقاتِلٍ: أنَّهم أهل اليمن.

وفي «مسند الإمام أحمدَ» من طريق شعبةَ، عن عَمرو بن مُرَّةَ، عن أبي البَخْتَريِّ، عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ، عن النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: لمَّا نَزلت هذه السُّورة: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ۝٢﴾ قال: قرأها رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتَّى ختمها؛ فقال: «**النَّاسُ حَيِّزٌ، وَأَنَا وَأَصْحَابِي حَيِّزٌ**»، وقال: «**لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الفَتْحِ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ**»[1]، وأنَّ مروانَ كذَّبه؛ فصدَّق رافعُ بن خَديجٍ وزيدُ بن ثابتٍ أبا سعيدٍ على ما قال.

وهذا يُستدَلُّ به على أنَّ المراد بـــ(الفتح): فتح مكَّةَ؛ فقد ثبت في «الصَّحيحين» من حديث ابن عبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ النَّبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال يوم الفتح: «**لَا هِجْرَةَ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ**».

وأيضًا فالفتح المطلَق هو فتح مكَّةَ؛ كما في قوله: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾[الحديد:١٠]؛ ولهذا قال: «**النَّاسُ حَيِّزٌ، وَأَنَا وَأَصْحَابِي حَيِّزٌ**».

وروى النَّسائيُّ من طريق هِلال بن خَبَّابٍ، عن عِكرمةَ، عن ابن عبَّاسٍ قال: لمَّا نزلت: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ إلى آخر السُّورة قال: نُعِيت لرسول الله

---

(١) إسناده مرويٌّ من رواية الثِّقات، لكنَّ أبا البَختريِّ لم يسمع من أبي سعيدٍ الخُدريِّ؛ فهو حديثٌ منقطِعٌ.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نفسُــه حين أُنزِلت، فأخذ في أشــدِّ ما كان اجتهادًا في أمر الآخرة، وقال رســول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد ذلك: «**جَاءَ الفَتْحُ، وَجَاءَ نَصْــرُ اللهِ، وَجَاءَ أَهْلُ اليَمَنِ**»، فقال رجلٌ: يا رسول الله؛ وما أهل اليمن؟ قال: «**قَوْمٌ رَقِيقَةٌ قُلُوبُهُمْ، لَيِّنَةٌ قُلُوبُهُمْ، الإِيمَانُ يَمَانٍ، وَالحِكْمَةُ يَمَانِيَةٌ، وَالفِقْهُ يَمَانٍ**»[(١)].

وروى ابن جريرٍ من طريق الحسين بن عيسى الحنفيِّ، عن مَعْمَرٍ، عن الزُّهريِّ، عن أبي حازمٍ، عن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: بينما رســول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المدينة إذ قال: «**اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ، جَاءَ نَصْــرُ اللهِ وَالفَتْحُ، جَاءَ أَهْلُ اليَمَنِ**»، قيل: يا رسـول الله؛ وما أهل اليمن؟ قال: «**قَوْمٌ رَقِيقَةٌ قُلُوبُهُمْ، لَيِّنَةٌ طِبَاعُهُمْ، الإِيمَانُ يَمَانٍ، وَالفِقْهُ يَمَانٍ، وَالحِكْمَةُ يَمَانِيَةٌ**».

ورواه أيضًا من طريق عبد الأعلى، عن مَعْمَرٍ، عن عكرمة مرسلًا.

وكذا هو في «تفسير عبد الرَّزَّاق» عن مَعْمَرٍ: (أخبرني مَن سمع عِكرمةَ)؛ فأرسله[(٢)].

وهذا لا يدلُّ على اختصاص أهل اليمن بالنَّاس المذكورين في الآية، وإنَّما يدلُّ على أنَّهم داخلون في ذلك؛ فإنَّ (النَّاس) أعمُّ من أهل اليمن.

قال ابن عبد البَرِّ: «لم يمت رســول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفي العرب رجلٌ كافرٌ؛ بل

---

(١) إسناده حسنٌ؛ وهو المحفوظ من قول ابن عبَّاسٍ: «نُعِيت لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نفسُه...».

(٢) هذا الحديث بهذا السِّياق الأخير المحفوظُ فيه الإرسال، وأمَّا وصلُه - كما رواه ابن جريرٍ - بذكر ابن عبَّاسٍ فإنَّه لا يَثبُت؛ فالحسين بن عيسى الحنفيُّ ضعيفٌ، وقد خالف جماعةً من الثِّقات رووه عن مَعْمَرٍ فلم يَصــلوه، وإنَّما جعلوه مُرســلًا من كلام عِكرمةَ أبي عبد الله البَربريِّ - مولى ابن عبَّاسٍ -، والمرسَــل حديثٌ ضعيفٌ.

دخل الكلُّ في الإسلام بعد حُنَينٍ والطَّائف؛ منهم من قَدِم، ومنهم من قَدِم وافدُه، ثمَّ كان بعدُ من الرِّدَّة ما كان، ورجعوا كلُّهم إلى الدِّين».

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

المختار أنَّ لفظ (النَّاس) في قوله تَعَالَىٰ: ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ﴾ عامٌّ؛ دالٌّ على جميع العرب، كما هو قول الجمهور، خلافًا لمقاتِلٍ.

والحديث الحسن المرويُّ في كون ذلك مجيءَ أهل اليمن لا يخالف العموم؛ لأنَّ ذكر بعض أفراد العامِّ بالتَّخصيص لا ينفي العموم عن غيرهم، ويكون إيرادُهم لنكتةٍ مقصودةٍ؛ وهي بيان فضلهم وعظيمِ شأنهم.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

قال ابن عطيَّةَ: «المراد وَٱللَّهُ أَعْلَمُ: العرب عبدة الأوثان، وأمَّا نصارى بني تَغلِب فما أراهم أسلموا قطُّ في حياة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكن أَعطوا الجِزية».

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قول ابن عطيَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فما أراهم) **يحتمل ضبطين اثنين:**

◊ **أحدهما**: بفتح الهمزة، على معنى العلم؛ أي فما أعلمُهم أسلموا قطُّ في حياة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

◊ **والآخر**: ضمُّ الهمزة، على إرادة الظَّنِّ؛ أي فما أراهم أسلموا قطُّ في حياة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهذا الَّذي ذكره ابن عطيَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في «المحرَّر الوجيز» يقتضي أن يكون لفظ (النَّاس) عامًّا أريد به الخصوص؛ فهو في صورة العامِّ من جهة الدَّلالة اللُّغويَّة لكلمة (النَّاس)، وهو خاصٌّ من جهة أنَّ مِن العرب مَن لم يدخل في الإسلام، وهم نَصارى بني تَغلِب.

وهذا الَّذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيه نظرٌ؛ لأنَّ (بني تَغلِب) دخلوا في الإسلام، لكنَّه ليس دخول إيمانٍ وتصديقٍ بالنَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكن دخول إلزامٍ بأحكام الإسلام.

لأنَّ دخول النَّاس إلى الإسلام في عهد النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقع على صورتين اثنتين:

* **الصُّورة الأولى**: من دخل في الإسلام ملتزِمًا بأحكامه؛ كما اتَّفق هذا من قُريشٍ

بعد فتح مكَّةَ، ومن هَوازنَ بعد غزاة حُنينٍ.

* **والصُّورة الثَّانية**: من دخل الدِّين مُلزَمًا بأحكامه؛ وهم نصارى بني تَغلِب؛ الَّذين أُلزِموا بجريان الأحكام الشَّرعيَّة عليهم؛ فأُخِذت منهم الجِزية - كما ثبت في «الصَّحيح».

فتكون هذه الآية عامَّةً على النَّحو الَّذي بيَّنَّاه من اختلاف معنى (الدُّخول في الدِّين)، وأنَّه فرقٌ بين دخولٍ ناتجٍ من التزامٍ بأحكام الإسلام، كما عليه أكثر العرب، ومن دخولٍ ناتجٍ من إلزامٍ بأحكام الإسلام، كما وقع من نصارى بني تَغلِب.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

والأفواج: الجماعة إثر الجماعة؛ كما قال الله تَعَالَىٰ: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ﴾ [الملك:٨].

وفي «المسند» من طريق الأوزاعيِّ قال: حدَّثني أبو عمَّارٍ، قال: حدَّثني جارٌ لجابر ابن عبد الله؛ قال: قدمتُ من سفرٍ، فجاءني جابر بن عبد الله يُسلِّم عليَّ، فجعلتُ أحدِّثه عن افتراق النَّاس وما أحدَثوا، فجعل جابرٌ يبكي، ثمَّ قال: سمعتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إِنَّ النَّاسَ دَخَلُوا فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا، وَسَيَخْرُجُونَ مِنْهُ أَفْوَاجًا**»(١).

وقوله: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ فيه قولان - حكاهما ابن الجوزيِّ -:

أحدهما: أنَّ المراد به: الصَّلاة؛ نقله عن ابن عبَّاسٍ.

والثَّاني: التَّسبيح المعروف.

وفي (الباء) في ﴿بِحَمۡدِ﴾ قولان:

أحدهما: أنَّها للمصاحَبة؛ فـ(الحمد) مضافٌ إلى المفعول؛ أي فسبِّحه حامدًا له، والمعنى: اجمع بين تسبيحه - وهو تنزيهه عمَّا لا يليق به من النَّقائص - وبين تحميده - وهو إثبات ما يليق به من المَحامد.

والثَّاني: أنَّها للاستعانة، و(الحمد) مضافٌ إلى الفاعل؛ أي سبِّحه بما حَمد به نفسه؛ إذْ ليس كلُّ تسبيحٍ بمحمودٍ، كما أنَّ تسبيح المعتزلة يقتضي تعطيلَ كثيرٍ من الصِّفات؛

---

(١) إسناده ضعيفٌ؛ لإبهام جار جابر بن عبد الله.

وقد تقدَّم أنَّ الإسناد المشتمل على راوٍ لم يُسَمَّ يكون ضعيفًا لإبهامه.

وقد يكون أيضًا منقطعًا مع هذا الإبهام؛ إذا لم يُعلَم تصريحه بالسَّماع من شيخه، وأمَّا ما هنا ففيه التَّصريح بأخذ هذا الجار للحديث عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

كما كان بِشْرٌ المَرِيسيُّ [1] يقول: سبحان ربِّي الأسفل!

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

القولان المحكيَّان في معنى (التَّسبيح) في قوله تَعَالَىٰ: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ كلاهما صحيحٌ؛ فإنَّ النَّبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمِر بذلك كلِّه.

وكذلك القولان المَحكيَّان في معنى (الباء) في قوله تَعَالَىٰ: ﴿ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ كلاهما قولٌ صحيحٌ.

فعلى القول الأوَّل تكون (الباء) للمصاحَبة، فيكون الحمد مضافًا إلى مفعوله؛ أي فسبِّح الله عَزَّوَجَلَّ حال كونك حامدًا له؛ بأن تجمع بين تنزيهه عن النَّقائص والعيوب، وبين إثبات المَحامد الكاملة له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على الوجه الَّذي يليق.

وعلى المعنى الثَّاني تكون (الباء) للاستعانة، فيكون الحمد مضافًا إلى الفاعل؛ أي فسبِّح مستعينًا بما حَمد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به نفسه، فـ(ليس كلُّ تسبيحٍ بمحمودٍ)؛ بل التَّسبيح المحمود هو ما سَبَّح الربُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به نفسه، وأمَّا تسبيح غيره فقد يكون

---

(١) المَرِيسي: بفتح الميم وكسر الرَّاء؛ هكذا ضبطه أبو سعدٍ الآبي في «النُّتَف والطُّرَف»، وأبو سعدٍ السَّمعاني في «الأنساب»، وابن الأثير في «اللُّباب»، وابن ناصر الدِّين في «توضيح المشتبِه»، والسُّيوطيُّ في «لُبِّ اللُّباب»، في آخرين.

وغَلِط في ضبطه على الضَّبط المشهور الصَّاغاني في «العُباب الزَّاخر»، فضبطه (المِرِّيسي)، وتابَعه الفيروزآبادي في «القاموس»، ثمَّ انتشر عند النَّاس، فصار بعض النَّاس يرى أنَّ هذا هو الصَّواب وأنَّ ما خلافه هو الخطأ.

محمودًا إذا وافق دلائل الشَّــرع النَّيِّرة، وقد يكون مذمومًا إذا خالفها؛ كما وقع هذا من طوائفَ من أهل البدع؛ منهم المعتزلة، الَّذين يقتضي تسبيحُهم لله عَزَّوَجَلَّ أن يعطِّلوه عن كثيرٍ من صفات كماله؛ (كما كان بِشْرٌ المَرِيسيُّ يقول: سبحان ربِّي الأسفل!) تعالى الله عمَّا يقول علوًّا كبيرًا.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ أي اطلُب مغفرته، و(المغفرة) هي وقاية شـرِّ الذَّنب، لا مُجرَّد ستره.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

[قول المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: (و(المغفرة) هي وقاية شـرِّ الذَّنب، لا مُجرَّد سـتره) فيه بيانُ قُصور ما يذكره كثيرٌ من المفسِّرين بأنَّ (المغفرة) هي مجرَّد سَتر الذَّنب؛ بل هي تشتمل على ما هو أعلى من ذلك، فيُستَر على العبد ذنبُه، ويُزاد عليه بأن يُمحى عنه أثرُه ولا يُعاقَب عليه، فلا يلحقه بذلك بعد توبته أثرٌ في الدُّنيا ولا في الآخرة، ويدفعُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنه الخوفَ من غوائل وعواقب الذُّنوب الَّتي كان واقَعها.

فـ (المغفرة) جامعةٌ لشيئين اثنين:

- ✓ **أحدهما**: سَتر الذَّنب وتغطيته.
- ✓ **والثَّاني**: وقاية المُذنِب شرَّه وتأمينه من العقوبة.

ذكر هذا أبو العبَّاس ابن تيميَّةَ الحفيد، وصاحبه أبو عبد الله ابن القيِّم][1].

---

(١) ما بين المعقوفتين منقولٌ - بتصرُّفٍ - من تقريرات شيخنا على «الغاية القصوى في الكلام على آية التَّقوى» للعلَّامة ابن الفاكهاني، و«نتائج الأفكار في شرح حديث سيِّد الاستغفار» للعلَّامة السَّفَّاريني، و«شرح حديث شدَّاد بن أوسٍ» للحافظ ابن رجبٍ، و«المذكِّرة على العقيدة الواسطيَّة» للعلَّامة ابن عثيمين.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

والفرق بين (العفو) و(المغفرة): أنَّ (العفو) محوُ أثر الذَّنب، وقد يكون بعد عقوبةٍ؛ بخلاف (المغفرة) فإنَّها لا تكون مع العقوبة.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

(المغفرة) أعلى مرتبةً من (العفو)؛ لأنَّهما وإن اشتركا في سَتر الذَّنب ومحو أثره، إلَّا أنَّ (العفو) قد يكون بعد عقوبةٍ؛ بخلاف (المغفرة)، فإنَّها لا تكون مع عقوبةٍ؛ فظهر فضل تفضُّل الله عَزَّوَجَلَّ بالمغفرة على تفضُّله بالعفو.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ إشارةٌ إلى أنَّه سُبْحَانَهُ يقبل توبة المستغفرين المُنِيبين إليه؛ فهو ترغيبٌ في الاستغفار، وحثٌّ على التَّوبة.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

هذا الَّذي ذكره ابن رجبٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ - مِن أنَّ في قوله تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ إشارةً إلى قبول الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ توبة المستغفرين المُنِيبين إليه - هو بعض معنى توبته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على خلقه، **فإنَّ توبة الله على خلقه تتضمَّن معنيين اثنين:**

- ✓ **أحدهما:** توفيق الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ العبد إلى التَّوبة.
- ✓ **والآخر:** أنَّه يقبل توبة التَّائبين.

ذكر ذلك أبو العبَّاس ابن تيميَّةَ في «رسالة التَّوبة»، وتلميذه ابن القيِّم في «مدارج السالِّكين»، وأبو الفَرَج ابن رجبٍ نفسُه في مواضعَ من كتبه.

فإنَّ من كريم فضله سُبْحَانَهُ وعميم رحمته أنَّه يأخذ بيد مَن شاء مِن العباد فيوفِّقه إلى التَّوبة - فيكون هذا بعض معنى توبة الله على عباده -، فإذا تاب العبد وآبَ تقبَّل الله منه - وهذا بقيَّة معناها -، ولذلك رَغَّب الله عَزَّوَجَلَّ في التَّوبة، وبَشَّر بقبول توبة التَّائبين؛ كما قال تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾ [الزُّمر:٥٣]، فأخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن مغفرته لجميع الذُّنوب؛ تنبيهًا إلى فتح باب التَّوبة والأوبة بالرُّجوع إليه مهما بلغ قدر الذُّنوب الَّتي تَلطَّخ بها العبد.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وقد فهم طائفةٌ من الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمِر بالتَّسبيح والتَّحميد والاستغفار عند مجيء نصر الله والفتح؛ شكرًا لله على هذه النِّعمة؛ كما صلَّى النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم فتح مكَّةَ ثماني ركعاتٍ، وكذلك صلَّى سعدٌ يوم فتح المَدائن، وكانت تُسمَّى (صلاة الفتح).

وأمَّا عمرُ وابن عبَّاسٍ فقالا: بل كان مجيء النَّصر والفتح علامةَ اقتراب أجله وانقضاء عمره؛ فأُمِر أن يختم عمله بذلك، ويتهيَّأ للقاء الله والقدوم عليه على أكمل أحواله وأتمِّها؛ فإنَّه لمَّا جاء نصر الله والفتح - بحيث صارت مكَّةُ دار إسلامٍ، وكذلك جزيرة العرب كلُّها، ولم يبق بها كافرٌ، ودخل النَّاس في دين الله أفواجًا -، وقد بلَّغ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسالات ربِّه، وعلَّم أمَّته مناسكَهم وعباداتِهم، وتركهم على البيضاء ليلُها كنهارها، ولم يَبق له من الدُّنيا حاجة؛ فحينئذٍ تهيَّأ للنَّقْلة إلى الآخرة؛ فإنَّها خيرٌ له من الأولى؛ ولهذا نزلت: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣] بعرفةَ، وعلَّم الأمَّة مناسكهم وقال لهم: «**لَعَلِّي لَا أَرَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا**»، وقال لهم: «**هَلْ بَلَّغْتُ؟**»، قالوا: نعم، وأَشهد اللهَ عليهم بذلك، وودَّع النَّاس، فقالوا: هذه حجَّة الوداع.

وقد خُيِّر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين الدُّنيا وبين لقاء ربِّه؛ فكان آخر ما سُمِع منه: «**اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الأَعْلَى**».

ونظير هذا الفهم الَّذي فهمه عمرُ من هذه السُّورة: ما فهمه أبو بكرٍ من قول النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في خطبته: «**إِنَّ عَبْدًا خُيِّرَ بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ لِقَاءِ رَبِّهِ، فَاخْتَارَ لِقَاءَ رَبِّهِ**»[1].

---

(١) رُوي عند التِّرمذيِّ وأحمدَ بسندٍ ضعيفٍ، فلا يَثبُت عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكنَّ أصل التَّخيير =

وقد سبق من حديث ابن عبَّاسٍ ما يدلُّ على ذلك.

وفي «صحيح البخاريِّ» من حديث سعيد بن جُبيرٍ، عن ابن عبَّاسٍ قال: كان عمرُ يُدخِلني مع أشياخ بدرٍ، فكأنَّ بعضهم وَجد في نفسه فقال: لِم تُدخِل هذا معنا ولنا أبناءٌ مثله؟ فقال عمرُ: إنَّه ممَّن قد عَلِمتُم. فدعاهم ذات يومٍ فأدخله معهم، فما رأيتُ أنَّه دعاني فيهم يومئذٍ إلَّا لِيُريهم، فقال ما تقولون في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾[النَّصر]؟ فقال بعضُهم: أُمِرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا جاء نصرُنا وفُتِح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئًا، فقال لي: أكذاك تقول يا ابن عبَّاسٍ؟ فقلتُ: لا، قال: ما تقول؟ قلتُ: هو أجلُ رسول الله أَعلمَه له، قال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ فذاك علامة أجلك، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾، فقال عمرُ بن الخطَّاب: ما أعلم منها إلَّا ما تقول.

وقد رُويت هذه القصَّة عن ابن عبَّاسٍ من غير وجهٍ.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

هذا الَّذي فهمه عمرُ وابن عبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا من أنَّها أجلُ النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يدفع ما ذكره الأشياخ مِن أصحابه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن أنَّها أمرٌ له صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وللمؤمنين بأنَّهم إذا جاء النَّصر والفتح أُمروا أن يحمدوا الله ويستغفروا، ولكن فيما ذكره عمرُ وابن عبَّاسٍ زيادة أمرٍ آخر؛ فهما يُثبِتان أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أمرنا أن نحمده وأن نستغفره إذا جاء

= ثابتٌ بغير هذا اللَّفظ في «الصَّحيحين».

نصـر الله وفتحُه، ولكن في هذه الآية إنباءٌ إلى قُرب أجل النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ففهم منها عمرُ - المُحدَّث المُلهَم - وابن عبَّاسٍ - الَّذي دعا له النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالفقه في الدِّين والعلم بالتَّأويل - قدرًا زائدًا على مجرَّد الأمر؛ وهو بيان نعي النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى نفسه.

[فقوله تَعَالَى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ﴾ اشـتمل على إشـارةٍ وأمرٍ؛ فأمرُ الله رسـولَه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يسـبِّحه مع حمده ويسـتغفرَه فيه - زيادةً على مجرَّد الأمر - الإشارة إلى دُنوِّ أجله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنَّ عُمره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عُمُرٌ فاضلٌ أقسم الله به، والأمور الفاضـلة - من عُمرٍ أو عملٍ أو غير ذلك - تُختَم بالاسـتغفار؛ كالصَّـلاة والحجِّ] [1].

وقول المصـنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فيما سـلف: (وتركهم على البيضـاء) فيه عدولٌ عمَّا يُعبِّر عنه كثيرون من قولهم: (المحجَّة البيضـاء)؛ لأنَّ لفظ (المحجَّة) لا يُحفَظ في الأخبار المأثورة عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فما يذكره بعض الوعَّاظ من قولهم: إنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لَقَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى البَيْضَـاءِ، لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ**»؛ لا يُعرَف بالكتب الكبار المعروفة من دواوين الإسـلام بزيادة (المحجَّة)، وإنَّما المعروف: «**لَقَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى البَيْضَاءِ، لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ**».

(١) ما بين المعقوفتين منقولٌ من تقريراتٍ أخرى لشيخنا على تفسيره لسورة النَّصر.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وفي «المسند» عن أبي رَزينٍ، عن ابن عبَّاسٍ قال: «لمَّا نزلت: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ علم النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قد نُعِيت إليه نفسُه».

وقد سبق من حديث ابن عبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ النَّبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمَّا نزلت هذه السُّورة أخذ في أشدِّ ما كان اجتهادًا في أمر الآخرة.

وروى الخَرائطيُّ في «كتاب الشُّكر» من طريق شاذِّ بن فيَّاضٍ، عن الحارث بن شِبْلٍ، عن أمِّ النُّعمان الكِنديَّةِ، عن عائشةَ قالت: لمَّا نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾[الفتح] اجتهد النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في العبادة؛ فقيل له: يا رسول الله؛ ما هذا الاجتهاد؟! أليس قد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر؟ قال: «**أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا**». إسناده ضعيفٌ.

وروى البيهقيُّ من طريق سعيدِ بن سليمانَ، عن عَبَّاد بن العوَّام، عن هلال بن خَبَّابٍ، عن عِكرمةَ، عن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: لمَّا نزلت: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ دعا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاطمةَ وقال: «**إِنَّهُ قَدْ نُعِيَتْ إِلَيَّ نَفْسِي**»، فبكت، ثمَّ ضحكت وقالت: أخبرني أنَّه قد نُعِيت إليه نفسه فبكيت، ثمَّ أخبرني بأنَّكِ أوَّل أهلي لَحاقًا بي فضحكتُ[1].

---

(١) هذا الحديث قد رُوي بإسنادٍ ظاهرُه الصِّحَّة، لكن له علَّةٌ؛ فإنَّ المحفوظ من حديث هلال بن خبَّابٍ عن عِكرمةَ عن ابن عبَّاسٍ في تفسير سورة النَّصر هو ما تقدَّم عند النَّسائيِّ وغيره ممَّا سبق أن ذكره المصنِّف، وكأنَّ بعض رواة الحديث بهذا اللَّفظ دخل عليه حديثٌ في حديثٍ، فرواهما ملفَّقًا على معنى حديثٍ واحدٍ.

وكان النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكثِر من التَّسبيح والتَّحميد والاستغفار بعد نزول هذه السُّورة.

ففي «الصَّحيحين» عن مسروقٍ، عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكثِر أن يقول في ركوعه وسجوده: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي**» يتأوَّل القرآن.

وفي «المسند» و«صحيح مسلمٍ» عنها قالت: كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكثِر في آخر أمرِه من قول: «**سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ**»، وقال: «**إِنَّ رَبِّي كَانَ أَخْبَرَنِي أَنِّي سَأَرَى عَلَامَةً فِي أُمَّتِي، وَأَمَرَنِي إِذَا رَأَيْتُهَا أَنْ أُسَبِّحَ بِحَمْدِهِ وَأَسْتَغْفِرَهُ، إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا، فَقَدْ رَأَيْتُهَا:** ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾» السُّورةَ كلَّها.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

هذا اللَّفظ المنقول عن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قوله: («**أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ**») هو أصحُّ مأثورٍ عن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كيفيَّة الاستغفار.

وصحَّ عنه أيضًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كما عند التِّرمذيِّ وغيره - أنَّه كان يقول: «**رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الغَفُورُ**»، وهو حديثٌ صحيحٌ.

ومنفعة مثل هذا: أنَّ المَحالَّ الَّتي جاء فيها أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استغفر ولم يُعيَّن فيها لفظ الاستغفار، يكون المقدَّم فيها هذه الألفاظ الثَّابتة، لا سيَّما هذا اللَّفظ المرويُّ في «صحيح مسلمٍ»؛ كما جاء في «الصَّحيحين» أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا انصرف

من صلاته استغفر ثلاثًا، ولم يأت في حديثٍ صحيحٍ ما يبيِّن كيفيَّة الاستغفار بعد الصَّلاة، وإنَّما في «صحيح مسلمٍ» أنَّ الوليدَ بن مسلمٍ سأل الأوزاعيَّ: كيف الاستغفار؟ فقال: «تقول: أستغفر الله، أستغفر الله»؛ وهذا حقٌّ، إلَّا أنَّ المأثور الأكمل عن النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو ما صحَّ هاهنا في حديث عائشةَ: («أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ»)، ولو اقتصر العبد على قول: (أستغفر الله) أجزأه؛ لأنَّه يكون قد استغفر حقيقةً.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وروى ابن جريرٍ من طريق حفصٍ قال: حدَّثنا عاصمٌ، عن الشَّعبيِّ، عن أمِّ سلمةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في آخر أمره لا يقوم ولا يَذهب ولا يجيء إلَّا قال: «**سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ**»، فقلتُ: يا رسول الله؛ إنَّك تُكثِر من «سبحان الله وبحمده»، لا تَذهب ولا تجيء ولا تقوم ولا تَقعد إلَّا قلتَ: «سبحان الله وبحمده»؟ قال: «**إِنِّي أُمِرْتُ بِهَا**»؛ فقال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ إلى آخر السُّورة. غريبٌ.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قول المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: (غريبٌ) لا يقصد مجرَّد الإشارة إلى تفرُّد كلِّ راوٍ بهذا الحديث عمَّن فوقه - كما هو المعنى المشهور لـ(الغريب) -، ولكنَّه يشير إلى أنَّ هذا الإسناد لا يُحتمَل.

والأقرب في الباب محفوظًا هو حديث عائشةَ المتقدِّم في «صحيح مسلمٍ».

وأمَّا هذا الحديث المخرَّج عند ابن جرير في «تفسيره» فالأشبه أنَّه - كما قال أبو الفرج ابن رجبٍ مشيرًا إلى ضعفه - حديثٌ غريبٌ، لا يَحتمِل هذا الإسناد.

وقد تُكلِّم في سماع الشَّعبيِّ من أمِّ سلمةَ، إلَّا أنَّ أبا حاتمٍ الرَّازيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى كان يُثبِته ويذكر أنَّه سمع منها.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وفي «المسند» عن أبي عبيدةَ، عن عبد الله بن مسعودٍ قال: لمَّا نزلت على رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ كان يُكثِر إذا قرأها وركع أن يقول: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» ثلاثًا.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

الحديث المتقدِّم في «المسند» هو من رواية أبي عبيدةَ بن عبد الله بن مسعودٍ، ورواية أبي عبيدةَ منقطعةٌ عند جمهور أهل العلم؛ فلم يسمع من أبيه.

لكن منهم من يجعلها في حكم المتَّصل؛ لأنَّ أبا عبيدةَ قد أخذ علمه عن كبار أصحاب أبيه؛ كعَلقمة، ومَسروقٍ، وغيرهما، فكانوا يُدخِلون حديثه في «المسند»، ويحكمون بجودته؛ كما جاء هذا عن عليِّ بن المَدينيِّ، ويعقوبَ بن شيبةَ، والنَّسائيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى؛ فإنَّه خرَّج حديثًا في «سننه الكبرى» من هذا الوجه ثمَّ قال: «أبو عبيدةَ لم يسمع من أبيه، والحديث جيِّدٌ».

فالأحاديث الَّتي رواها أبو عبيدةَ عن أبيه لا يُعرَف فيها حديثٌ منكرٌ؛ لأنَّ أصحاب ابن مسعودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لم يُعرَف فيهم من هو شديد الضَّعف؛ نصَّ على ذلك جماعةٌ، وصرَّح أبو العبَّاس ابن تيميَّةَ بأنَّ أصحاب ابن مسعودٍ كلُّهم ثقاتٌ، ونقل تلميذه ابن القيِّم - في «زاد المعاد» - تسميتَهم بـ(سُرُج الكوفة).

وقد قال المغيرة بن مِقْسَمٍ: «لم يكن يَصدُق على عليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في الحديث عنه، إلَّا

من أصحاب ابن مسعودٍ». رواه مسلمٌ في مقدِّمة «صحيحه».

وكلُّ هذا يدلُّ على جلالة مدرسة ابن مسعودٍ في الكوفة، وثِقة أصحابه؛ ممَّا يدلُّ على أنَّ الأحاديث المرويَّة بهذا الإسناد ممَّا تُحتَمل وتُدخَل في الحديث المقبول، وإن كان ظاهرها الانقطاع؛ لأنَّ الانقطاع لا يضرُّ دائمًا؛ بل يختلف باختلاف الحال؛ فقد يكون مُنتِجًا للضَّعف - كما هو الأصل -، وقد يكون غير مُنتِجٍ للضَّعف؛ بل له حكم الوصل؛ كما في رواية أبي عُبيدةَ بن عبد الله بن مسعودٍ فيما يظهر عند أهل العلم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ الَّذين قبلوها وإن لم يُدخِلوها في الصِّحاح، فتَجنَّبها البخاريُّ ومسلمٌ، ولم يرويا بهذا الإسناد شيئًا.

وكما في رواية عليِّ بن أبي طلحةَ عن ابن عبَّاسٍ؛ فإنَّ عليًّا لم يسمع من ابن عبَّاسٍ، ولكنَّ روايتَه للتَّفسير عنه كان يُعظِّمها جماعةٌ من الأئمَّة؛ منهم الإمام أحمدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ، واعتمدها البخاريُّ في «صحيحه»، فعلَّق كثيرًا من كلام ابن عبَّاسٍ في «التَّفسير» مجزومًا به، وهو من رواية عليِّ بن أبي طلحةَ عن ابن عبَّاسٍ.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

واعلم أنَّ التَّسبيح والتَّحميد فيه إثبات صفات الكمال ونفي النَّقائص والعيوب، والاستغفار يتضمَّن وقاية شرِّ الذُّنوب؛ فذاك حقُّ الله، وهذا حقُّ عبده؛ ولهذا في خطبة الحاجة: «**الحَمْدُ للهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ**».

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

فكان الجمع بينهما من أوفقِ الجمع؛ لأنَّه جمعٌ بين حقِّ الخالق والمخلوق.

○ **فحقُّ الرَّبِّ** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: تحميدُه بإثبات الكمالات، وتنزيهُه بنفي العيوب والنَّقائص.

○ **وحقُّ العبد**: الاستغفار وسؤال الله عَزَّوَجَلَّ الوقاية من شرِّ الذُّنوب.

ومن أجل هذا عَظُمت (خطبة الحاجة) المرويَّة عن النَّبيِّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ وفيها أنَّ النَّبيَّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقول: («**الحَمْدُ للهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ**»).

وفي «صحيح مسلمٍ»: «**إِنَّ الحَمْدَ**»؛ وفي ذلك ردٌّ على من زعم أنَّ خطبة الحاجة المرويَّة عن النَّبيِّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليس فيها: «**إِنَّ الحَمْدَ للهِ**»؛ لثبوت ذلك في «صحيح مسلمٍ».

وهذا لا ينافي الابتداء بالحمد؛ بل يكون أبلغَ في الحمد؛ لأنَّه تأكيدٌ للحمد؛ فهو حمدٌ وزيادةٌ.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وكان رجلٌ في زمن الحسن البصريِّ معتزلٌ النَّاسَ، فسأله الحسن عن حاله؟ فقال: إنِّي أصبح بين نعمةٍ وذنبٍ، فأُحدِث للنِّعمة حمدًا، وللذَّنب استغفارًا؛ فأنا مشغولٌ بذلك، فقال الحسن: «الزم ما أنت عليه، فأنت عندي أفقهُ من الحسن».

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

ما ذكره هذا الرَّجل المتعبِّد هو من **الأحوال الثَّلاثة الَّتي تجري على العبد**:

- فالعبد إمَّا بين نعمةٍ يجب عليه شكرُها.
- أو ذنبٍ يجب عليه أن يستغفر منه.
- أو بليَّةٍ تنزل به يجب عليه أن يصبر عليها.

فحاله دائرٌ بين النِّعمة والذَّنب والابتلاء.

ولهذا كان الجمع بين هذه الثَّلاث عنوانًا للسَّعادة - كما ذكره ابن القيِّم في «الوابل الصَّيِّب»، ثمَّ إمام الدَّعوة في صدر «القواعد الأربع» -؛ فإنَّ العبد إذا ابتُلي فصبر، وأُنعِم عليه فشكر، وأذنب فاستغفر؛ كان ذلك مِلاك سعادته وجِماعها.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

والاستغفار هو خاتمة الأعمال الصَّالحة؛ فلهذا أُمِر النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يجعله خاتمة عمره، كما يُشرَع لمصلِّي المكتوبة أن يستغفر عقبها ثلاثًا، وكما يُشرَع للمتهجِّد من اللَّيل أن يستغفر بالأسحار؛ قال تَعَالَىٰ: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾[الذَّاريات]، وقال: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾[آل عمران:١٧].

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال الحسن البصريُّ: «قاموا اللَّيل، فلمَّا انتهوا إلى السَّحر أُمِروا بالاستغفار».

وفي هذا بيان فضل الانقطاع عن الصَّلاة باللَّيل إذا دخل السَّحَر، وأن يشتغل العبد بالاستغفار دون الصَّلاة.

والسَّحَر: الوقت الكائن بين الفجر الكاذب والفجر الصَّادق؛ كما اختاره أبو الفضل ابن حجرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في «فتح الباري»، ونصره شيخ شيوخنا محمَّد حبيب الله الشِّنقيطيُّ في «إضاءة الحالك».

وهو وقتٌ يسيرٌ اختلف أهل العلم في تقديره؛ فمنهم مَن قدَّره بما يزيد عن النِّصف ساعةٍ إلى خمسةٍ وأربعين دقيقةً، وبعضهم قدَّره بعشرين دقيقةً.

وضابطُه:

مَا بَيْنَ كَاذِبٍ وَصَادِقٍ سَحَرْ عَلَى الَّذِي يَخْتَارُهُ مَنِ اخْتَبَرْ

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وكما يُشرَع الاستغفار عَقيب الحجِّ؛ قال تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ ﴾[البقرة]، وكما يُشرَع ختم المجالس بالتَّسبيح والتَّحميد والاستغفار، وهو كفَّارة المجلس، ورُوي أنَّه يختِم به الوضوء أيضًا.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

هذه كلُّها من المَحالِّ الثَّابتة في الشَّرع للاستغفار:

- إمَّا في القرآن الكريم؛ كما في الأسحار، وعَقيب الحجِّ.
- وإمَّا في السُّنَّة النَّبويَّة عن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ كما في ختم الصَّلاة المكتوبة بالاستغفار ثلاثًا، وكما في ختم المجالس بالتَّسبيح والتَّحميد والاستغفار، وهو كفَّارة المجلس الَّتي تكون تارةً تكفيرًا لِما في المجلس من الذُّنوب إذا كان فيه لغطٌ، وتكون تارةً كالخاتَم عليه إذا خلا من ذلك؛ كما ثبت به الخبر عن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وثَمَّ محلٌّ آخرُ ذكره المصنِّف، وهو بعد الوضوء؛ وقد رُوي هذا عند النَّسائيِّ في «عمل اليوم واللَّيلة» من حديث أبي سعيدٍ الخُدريِّ عن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: **«من تَوَضَّأ فَقَالَ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَلَّا إِلَه إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ؛ كُتِبَ فِي رَقٍّ ثُمَّ طُبِعَ بِطَابَعٍ، فَلَمْ يُكْسَرْ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»**.

وهذا الحديث بهذا اللَّفظ اختُلف في رفعه ووقفه، **والصَّحيح** أنَّه موقوفٌ من كلام أبي سعيدٍ الخُدريِّ؛ بيَّنه أبو عبد الرَّحمن النَّسائيُّ في «عمل اليوم واللَّيلة»، إلَّا أنَّ مثله

لا يُقال من قِبل الرَّأي؛ جزم به الحافظ ابن حجرٍ في «نتائج الأفكار» وفي «النُّكت الظِّراف»، فيكون من الأحاديث المرفوعة حكمًا إلى النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والمنقول عن النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الأذكار الَّتي تُقال بعد الوضوء نوعان اثنان:

- **الأوَّل منهما**: الشَّهادة؛ بقول: (أشهد ألَّا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله).

- **والثَّاني**: (سبحانك اللَّهمَّ وبحمدك، أشهد ألَّا إله إلَّا أنت، أستغفرك وأتوب إليك).

وأمَّا ما زاد عن هذا من الأذكار المرويَّة عن النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنَّه لا يثبت؛ كما جاء عند التِّرمذيِّ: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ، وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ**»، فهذه الزِّيادة لا تثبت عن النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أذكار الوضوء، وأصل الحديث في «صحيح مسلمٍ» ليس فيه ذكر هذه الزِّيادة، وإنَّما فيه ذكر الشَّهادتين؛ **فالمحفوظ**: ذكر الشَّهادتين.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وسبب هذا أنَّ العباد مقصِّرون عن القيام بحقوق الله كما ينبغي، وأدائها على الوجه اللَّائق بجلاله وعظمته، وإنَّما يؤدُّونها على قدر ما يطيقونه، فالعارف يعرف أنَّ قدر الحقِّ أعلى وأجلُّ من ذلك؛ فهو يستحي من عمله، ويستغفر من تقصيره فيه، كما يستغفر غيره من ذنوبه وغفلاته.

وكلَّما كان الشَّخص بالله أعرفَ، كان له أخوفَ، وبرؤية تقصيره أبصرَ؛ ولهذا كان خاتَم المرسلين وأعرفُهم بربِّ العالمين يجتهد في الثَّناء على ربِّه، ثمَّ يقول في آخر ثنائه: «**لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**».

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

هذه النُّكتة بيَّن فيها المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ وجه مشروعيَّة أنَّ العبد يعمل العمل الصَّالح ثمَّ يستغفر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عقبه، وهو أنَّ النُّفوس تَقصُر عن أداء ما يجب لله مِن حقٍّ، فيكون في الاستغفار سدٌّ لخَلَّة هذا النَّقص.

[فهذه التَّوبة الَّتي وردت في هذه المقامات ليست توبةً من مُقارَفة الرَّذائل - باتِّفاق أهل العلم -، ولكنَّها توبةٌ من ترك تكميل الفضائل؛ **فإنَّ التَّوبة الَّتي أُمِر بها العبد نوعان:**

- **النَّوع الأوَّل**: التَّوبة من مُقارفة الرَّذائل.
- **والآخر**: التَّوبة من ترك تكميل الفضائل.

وقد ذكر هذا المعنى شيخ الإسلام ابن تيميَّة في «رسالة التَّوبة»، وصاحبه ابن القيِّم

في «مدارج السَّالكين»، وحفيده بالتَّلمذة أبو الفرج ابن رجبٍ في هذا الكتاب - وسيأتي.

فحينئذٍ يكون العبد في هذه المقامات تائبًا إلى الله عَزَّوَجَلَّ من تركه تكميله للفضائل؛ فإنَّه ربَّما لحقه فتورٌ أو نقصٌ أثناء هذا العمل أو قصَّر في شيءٍ من أحكامه؛ فيتوب إلى الله عَزَّوَجَلَّ من عدم تكميله لفضائله][1].

(١) ما بين المعقوفتين زيادةٌ منقولةٌ من تقريرات شيخنا على «سرِّ الاستغفار عقب الصَّلوات» للعلَّامة جمال الدِّين القاسميِّ.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

ومن هذا قول مالكِ بن دينارٍ: «لقد هممتُ أن أُوصي إذا متُّ أن أُقيَّد ثمَّ يُنطلَق بي كما يُنطلَق بالعبد الآبِق [1] إلى سيِّده، فإذا سألني قلتُ: يا ربِّ؛ لم أَرْضَ لك نفسي طَرْفة عينٍ».

وكان كَهْمَسُ يصلِّي كلَّ يومٍ ألف ركعةٍ، فإذا صلَّى أخذ بلحيته ثمَّ يقول لنفسه: «قُومي يا مأوى كلِّ سوءٍ، فوالله ما رضيتُك لله طَرْفة عينٍ».

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

وكلُّ هذا من الإزراء على النَّفس وهضمها.

وهذا يُوجَد كثيرًا في آثار السَّلف؛ فلا يُقصَد منه طلب هذه الحال؛ بأن يَتطلَّب العبد فعل مثل هذه الأفعال؛ [فمثل هذه الأحوال إنَّما هي حالٌ يُغلَب فيها الإنسان، وليست هي من الحال المطلوبة؛ ولا بدَّ أن يُفرِّق النَّاظر في أحوال السَّلف بين حالٍ تُطلَب وحالٍ تَغلب.

فالحال الَّتي تُطلَب هي الحال الَّتي أُمِرنا أن نتعبَّد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها.

فإذا وقع من أحوال السَّلف ما يوافق ما أُمِرنا به من العبادة كان ذلك مأمورًا به، مُقتدًى بهم فيه؛ كمن كان من السَّلف يصوم يومًا ويفطر يومًا، فإنَّ هذا جارٍ على حالٍ تُطلَب مأمورٍ بها شرعًا.

---

(١) يعني الفارُّ من سيِّده.

وأمَّا الحال الَّتي تَغلِب فهي الحال الَّتي تجري بحكم القَدر على العالِم أو المتعبِّد النَّاسك من السَّلف، ولا يُؤمَر بها شرعًا؛ فيكون معذورًا باعتبار أنَّه مغلوبٌ، لكن لا يُطلَب التَّأسِّي به][1].

والمقصود من هذه الآثار أن يهضم العبد نفسه وأن يَكسِر نَخوتها، وألَّا يُعجَب بشيءٍ من عمله؛ لأنَّ اغترار العبد بشيءٍ من عمله بريد خسارته.

فإنَّ العبد إذا استكثر شيئًا من العمل واغتَرَّ به كبَّه ذلك في نار جهنَّمَ، كما فسَّر العلماء بذلك قول سعيد بن جُبيرٍ: «إنَّ الرَّجل لَيعمل بالحسنة فتُدخِله النَّار»، وفي لفظ: «فيُدخِله الله بها النَّارَ» يعني أنَّه استعظمها وبقي مستحضِرًا لها بين عينيه، يَستعلي بها على خلق الله، ويمنُّ بها على ربِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فخُذِل من حيث قصَّر في قيامه بحقِّ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فكُبَّ على وجهه في نار جهنَّمَ.

وهكذا حال كُمَّل عباد الله عَزَّوَجَلَّ؛ فإنَّهم يُحسِّنون أعمالهم ويجتهدون في إصلاحها، ثمَّ بعد ذلك إذا عملوها نسوها ولم يروها في أعينهم شيئًا؛ لأنَّهم يستحضرون أنَّ عظمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وما يجب له من حقٍّ فوق ما يعملون من أعمالٍ.

---

(١) ما بين المعقوفتين زيادةٌ منقولةٌ من تقريرات شيخنا على «تذكرة السَّامع والمتكلِّم في أدب العالم والمتعلِّم» للعلَّامة ابن جماعةَ.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

فَائِدَة

الاستغفار يَرِد مجرَّدًا، ويرد مقرونًا بالتَّوبة.

فإن ورد مجرَّدًا دخل فيه طلب وقاية شرِّ الذَّنب الماضي بالدُّعاء والنَّدم عليه، ووقاية شرِّ الذَّنب المتوقَّع [1] بالعزم على الإقلاع عنه.

وهذا الاستغفار الَّذي يمنع الإصرارَ بقوله: «**مَا أَصَرَّ مَنِ اسْتَغْفَرَ، وَلَوْ عَادَ فِي اليَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً**»، وبقوله: «**لَا صَغِيرَةَ مَعَ الإِصْرَارِ، وَلَا كَبِيرَةَ مَعَ الاسْتِغْفَارِ**». خرَّجهما ابن أبي الدُّنيا [2].

وكذا في قوله تَعَالَىٰ: ﴿**وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ**﴾[آل عمران:١٣٥].

وفي «الصَّحيح»: «**أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا...**» الحديث.

---

(١) في المطبوع: (وشرِّ وقاية الذَّنب المتوقَّع)، وهو قلبٌ.

(٢) هذان الحديثان قد رُويا بإسنادين متكلَّمٍ فيهما.

والحديث الأوَّل قد خرَّجه مَن هو أعلى من ابن أبي الدُّنيا؛ كأبي داودَ في «سننه»، والتِّرمذيِّ في «سننه».

والأقرب وَٱللَّهُ أَعْلَمُ تحسين إسناده؛ كما مال إليه أبو الفداء ابن كثيرٍ في «تفسيره»؛ فإنَّه لم يُعَلَّ إلَّا بأنَّ فيه مولًى لأبي بكرٍ الصِّدِّيق مجهولًا، ومجاهيل التَّابعين - ولا سيَّما من طاف بأبي بكرٍ الصِّدِّيق - أمرهم سهلٌ، ولا سيِّما إذا اقترن هذا بالنَّظر إلى الباب الَّذي روي فيه هذا الحديث، وهو بابُ فضائلَ ورغائبَ.

وهو المانع من العقوبة في قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال:٣٣].

وإن ورد مقرونًا بالتَّوبة اختصَّ بالنَّوع الأوَّل.

فإن لم يصحبه النَّدم على الذَّنب الماضي - بل كان سؤالًا مجرَّدًا - فهو دعاءٌ محضٌ، وإن صحبه ندمٌ فهو توبةٌ.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

يعني أنَّك إذا قلت: (أستغفر الله) من غير قرنها بسؤال توبةٍ، **كان دعاؤك هذا شاملًا لأمرين اثنين:**

✓ **أحدهما:** (طلب وقاية شرِّ الذَّنب الماضي بالدُّعاء والنَّدم عليه).

✓ **والآخر:** طلب وقاية شرِّ (الذَّنب المتوقَّع) في المستقبَل (بالعزم على الإقلاع عنه).

فإذا قلتَ: (أستغفر الله وأتوب إليه) بذكر الاستغفار مقرونًا بالتَّوبة، كان المراد بـ (الاستغفار) هاهنا طلب وقاية شرِّ الذَّنب الماضي.

فإن لم يصحبه النَّدم على ذنبٍ مضى فإنَّه يكون دعاءً مجرَّدًا، وأمَّا إذا صحبه النَّدم فإنَّه يكون توبةً.

[وقول المصنِّف: (وفي «الصَّحيح»: «أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا...» الحديث) يعني ما أخرجه البخاريُّ عن أبي هريرةَ عن النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما يحكي عن ربِّه عَزَّوَجَلَّ أنَّه قال:

«أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ؛ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ؛ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ»، قال عبد الأعلى- راوي الحديث -: لا أدري أقال في الثَّالثة أو الرَّابعة: «اعْمَلْ مَا شِئْتَ».

فإنَّ هذا العبد كلَّما زلَّ وأخطأ في جَناب محبوبه الَّذي يُحبُّه بادر إلى تَلافي تلك الوَصمة، وعاجَل إلى إقالة ما وقع منه في حقِّه من الذَّنب والمعصية بالتَّوبة والاستغفار؛ قال الشَّعبيُّ في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ ﴿١﴾﴾[البقرة:٢٢٢]: «التَّائب من الذَّنب كمن لا ذنب له، وإذا أحبَّ الله عبدًا لم يضرَّه ذنبُه».

وقال زيدُ بن أسلمَ: «إنَّ الله لَيُحِبُّ العبدَ حتَّى يبلغ من حبِّه له أن يقول: اذهب فاعمل ما شئتَ فقد غفرتُ لك».

وشاهد هذا ما اتَّفق لأهل بدرٍ؛ فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لمَّا أحبَّهم رفعهم مقامًا عليًّا في الدِّين، وجعل لهم فضلًا على سائر الصَّحابة؛ كما في الصَّحيح أنَّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لعُمرَ: «وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»، وإنَّما وقع لهم هذا بمحبَّة الله عَزَّوَجَلَّ إيَّاهم؛ لصدق محبَّتهم لله عَزَّوَجَلَّ وقوَّة إقبالهم عليه، ومبادرتِهم إلى إجابة داعي الله في أوَّل لُقيٍّ بين المشركين][1].

---

(١) ما بين المعقوفتين زيادةٌ منقولةٌ - بتصرُّفٍ - من تقريرات شيخنا على «المحبَّة لله سبحانه» للمحدِّث إبراهيمَ الخُتَّلِيِّ، و«كتاب التَّوحيد» للحافظ ابن رجبٍ.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

والعزم على الإقلاع من تمام التَّوبة.

والتَّوبة إذا قُبِلت فهل تُقبَل جزمًا أم ظاهرًا؟ فيه خلافٌ معروفٌ.

فيُقال: الاستغفار المجرَّد هو التَّوبة مع طلب المغفرة بالدُّعاء، والمقرون بالتَّوبة هو طلب المغفرة بالدُّعاء فقط.

وكذلك التَّوبة إن أُطلِقت دخل فيها الانتهاء عن المحظور وفعل المأمور؛ ولهذا عُلِّق الفلاح عليها، وجُعِل من لم يتب ظالمًا.

فالتَّوبة حينئذٍ تشمل فعل كلِّ مأمورٍ، وترك كلِّ محظورٍ؛ ولهذا كانت بدايةَ العبد ونهايتَه، وهي حقيقة دين الإسلام.

وتارةً يُقرن بالتَّقوى أو بالعمل؛ فتختصُّ حينئذٍ بترك المحظور، وَٱللَّهُ أَعْلَمُ.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

يعني أنَّ الأمر بالتَّوبة إذا جاء مقرونًا (بالتَّقوى أو بالعمل فتختصُّ حينئذٍ بترك المحظور)، ويكون المراد في الأمر بالتَّقوى أو بالعمل: القيام بأداء المأمور.

وما ذكره المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في الجملة السَّالفة من أنَّ التَّوبة هي بداية العبد ونهايته: حقٌّ؛ فإنَّ العبد محتاجٌ في كلِّ لحظاته إلى التَّوبة إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النُّور:٣١].

وكان النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستغفر في اليوم مائة مرَّةٍ، وكان يستغفر في المجلس

الواحد سبعين مرَّةً، هذا وهو الطَّاهر المُطهَّر الَّذي غُفر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر! فغيرُه من العباد أحوج إلى تجديد التَّوبة ودوام سؤال الله عَزَّوَجَلَّ إيَّاها حتَّى يثبت عليها ويترقَّى في مقاماتها؛ فإنَّ التَّوبة ليست فقط من فعل السَّيِّئات؛ بل التَّوبة أيضًا من ترك الحسنات.

فانظر كم تركتَ من الحسنات، فأنت محتاجٌ إلى التَّوبة من ذلك؛ فإنَّك ربَّما تركتَ حسنةً واجبةً، وربَّما تركتَ حسنةً مستحبَّةً؛ فتحتاج إلى سؤال الله عَزَّوَجَلَّ بأن يتوب عليك فيوفِّقك إلى استدراك ما تركتَ من الحسنات بالقيام به؛ فضلًا عمَّا هو متعلِّقٌ بالسَّيِّئات، وهو أنَّ العبد ملازمٌ للذَّنب؛ كما دلَّت على ذلك الآثار والأخبار الصِّحاح؛ ومنها ما في «صحيح مسلمٍ» من حديث أبي ذرٍّ الطَّويل، وفيه أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قال: «**يَا عِبَادِي؛ إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا؛ فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ**»؛ فدلَّ هذا الحديث على أنَّ الذَّنب ملازمٌ للآدميِّ، فيحتاج العبد لطرد الذَّنب عنه بأن يديم استغفار الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهذا الحديث الَّذي ذكرنا من رواية مسلمٍ يغني عن الحديث الضَّعيف المشهور أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ**»؛ فإنَّ هذا يُروى من حديث أنسٍ من وجهٍ لا يُحتمَل؛ بل إسناده ضعيفٌ، وما في «صحيح مسلمٍ» أولى وأحلى.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وفي فضائل الاستغفار أحاديثُ كثيرةٌ:

منها: حديث: «**جِلَاءُ القُلُوبِ: تِلَاوَةُ القُرْآنِ وَالاسْتِغْفَارُ**».

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

هذا الحديث بهذا اللَّفظ ممَّا لم يُوقَف عليه، ولكن رُوي بعضه - ممَّا يفيد أنَّ جلاء القلوب الاستغفار - بأسانيدَ ضعيفةٍ لا تَثبت عن النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولكنَّ معناه حقٌّ؛ فإنَّ للذَّنب دَرَنًا على القلب، والاستغفار يدفع دَرَن الذَّنب؛ فصار بمثابة الجِلاء للقلوب.

ولهذا؛ مَن أكثر الاستغفار عاد قلبه أبيضَ نقيًّا، ومن أهمل الاستغفار تراكمت الذُّنوب على قلبه حتَّى يسودَّ، ولأجل هذا كان النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يهتمُّ في يومه كلِّه بكثرة الاستغفار؛ تحصيلًا لهذه الحال الكاملة.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وحديث: «**فَإِنْ تَابَ وَاسْتَغْفَرَ وَنَزَعَ صُقِلَ قَلْبُهُ**».

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

وهو حديثٌ حسنٌ ثابتٌ عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفيه بيان أثر التَّوبة والاستغفار بعد وقوع الذَّنب؛ فـ«**إِنَّ المُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ**» كما جاء في هذا الحديث وغيره «**كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ**» يعني طُهِّر قلبه من هذا.

وهذا يدلُّك على المعنى الَّذي تقدَّم ذكرُه من كون الاستغفار جِلاءً للقلوب.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وحديث: «ابْنَ آدَمَ؛ إِنَّكَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ [١]، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي» [٢].

وحديث ابن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كنَّا نَعُدُّ لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المجلس الواحد: «رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الغَفُورُ» مائة مرَّةٍ [٣].

وحديث أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي اليَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً وَأَتُوبُ إِلَيْهِ». خرَّجه البخاريُّ.

ومن حديثه مرفوعًا: «لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ ثُمَّ يَسْتَغْفِرُونَ، فَيُغْفَرُ لَهُمْ». خرَّجه مسلمٌ.

وفي «المسند» من حديث عطيَّةَ، عن أبي سعيدٍ، عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَالَ حِينَ يَأْوِي إِلَى فِرَاشِهِ: أَسْتَغْفِرُ اللهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ؛ غَفَرَ اللهُ لَهُ ذُنُوبَهُ، وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحْرِ، وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ رَمْلِ عَالِجٍ [٤]، وَإِنْ كَانَتْ عَدَدَ وَرَقِ الشَّجَرِ» [٥].

---

(١) يعني السَّحاب.

(٢) هذا حديثٌ مرويٌّ عن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو آخر حديثٍ في «الأربعين النَّوويَّة»، وإسناده لا بأس به.

(٣) تقدَّم أنَّ هذا الحديث من صِحاح الأحاديث المذكورة في صفة استغفار النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(٤) عالِج: محلٌّ كثير الرَّمل.

(٥) إذا مرَّ بك (عطيَّةُ عن أبي سعيدٍ) فاعلم أنَّه عطيَّة بن سعدٍ العوفيِّ، أحد الضُّعفاء؛ فالإسناد ضعيفٌ.

وحديث: «مَنْ أَكْثَرَ الاسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللهُ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا». خرَّجه أحمدُ من حديث ابن عبَّاسٍ (١).

ويَعضُده قوله تَعَالَىٰ: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح:١٠]، وقوله: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ [هود:٣].

قال رَبَاحٌ القيسيُّ: «لي نيِّفٌ (٢) وأربعون ذنبًا، قد استغفرت لكلِّ ذنبٍ مائةَ ألف مرَّةً».

وقال الحسن: «لا تَملُّوا من الاستغفار».

وقال بكرٌ المُزنِيُّ: «إنَّ أعمال بني آدمَ تُرفَع، فإذا رُفِعت صحيفةٌ فيها استغفارٌ رُفِعت بيضاءَ، وإذا رُفِعت ليس فيها استغفارٌ رُفِعت سوداءَ».

وعن الحسن قال: «أكثِروا من الاستغفار في بيوتكم، وعلى موائدكم، وفي طرقكم، وفي أسواقكم؛ فإنَّكم ما تدرون متى تنزل المغفرة».

وقال لقمانُ لابنه: «أيْ بنيَّ؛ عوِّد لسانك: اللَّهمَّ اغفر لي؛ فإنَّ لله ساعاتٍ لا يَرُدُّ فيهنَّ سائلًا».

ورُئي عمرُ بن عبد العزيز في النَّوم فقيل له: ما وجدتَ أفضل؟ قال: «الاستغفار».

آخِرُه

(١) قد خرَّجه مَن هو فوقه مِن أصحاب السُّنن؛ كأبي داودَ، وابن ماجه، وإسناده ضعيفٌ.

(٢) **(نيِّف)** بمعنى الفضل والزِّيادة، **وفيها ضبطان اثنان:**

- **أحدهما**: التَّشديد؛ وهو المشهور.
- **والآخر**: التَّخفيف.

والحمد لله ربِّ العالمين

وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا إلى يوم الدِّين.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

هذا الَّذي ذكره أبو الفرج ابن رجبٍ من الآثار الواردة عن السَّلف دالٌّ على تصديق ما تقدَّم من افتقار العبد إلى الاستغفار.

كما أنَّ فيما نثره أبو الفرج رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في «تفسيره» أبلغُ البيان على جلالة هذه السُّورة وإن قصرت.

وقد تضمَّنت هذه السُّورة أربعين فائدةً:

الفائدة الأولى: أنَّ الله ينصر رسله وأولياءه؛ تارةً بالسَّيف والسِّنان، وتارةً بالحجَّة والبيان، وتارةً بالجمع بينهما؛ كما اتَّفق لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإنَّه نُصِر على العرب بحجَّته وبيانه وسيفه وسِنانه؛ وهذا أكمل النَّصر.

الفائدة الثَّانية: جواز ذكر الخاصِّ بعد العامِّ؛ اهتمامًا به، وتعظيمًا لشأنه؛ كما قال تَعَالَىٰ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾؛ فإنَّ فتح مكَّةَ من جملة نصر الله، الَّذي هو هنا نصر الله عَزَّوَجَلَّ للنَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على العرب قاطبةً.

الفائدة الثَّالثة: أنَّ نصر الله قادمٌ لا يتخلَّف عن المؤمنين؛ لأنَّ الله قال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾، و(إذا): ظرفٌ لِما يُستقبَل من الزَّمان، والخطاب في الآية لا يختصُّ بالنَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ بل يعمُّ أتباعه؛ لأنَّ الأصل في خطاب القرآن كونُه للعموم؛

فكلُّ من اتَّبعه فإنَّ النَّصر مآله.

الفائدة الرَّابعة: أنَّ (النَّصر) صفةٌ من صفات الله عَزَّوَجَلَّ؛ فهو سُبْحَانَهُ نِعم المولى والنَّصير.

الفائدة الخامسة: أنَّ مَن نصر اللهَ؛ نصره اللهُ؛ فإنَّ النَّبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قام في نصرة التَّوحيد وتحقيق العبوديَّة؛ فنصره الله؛ كما قال تَعَالَىٰ - وهو وعدُ الله الحقُّ -: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾[محمَّد:٧].

الفائدة السَّادسة: اختصاص نصر الله بالكمال والتَّمام؛ فهو ظفرٌ لا نقصَ فيه، كيف لا والله خير النَّاصرين؟! كما قال تَعَالَىٰ: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ١٥٠﴾ [آل عمران].

الفائدة السَّابعة: أنَّ نصر الله لأوليائه يستوجب منهم تحقيق عبوديَّته؛ ولهذا ذكر اسم (الله) في قوله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ دون غيره من الأسماء، وكان النَّبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول في دعائه: «**وَنَصَرَ عَبْدَهُ**» إشعارًا بهذا المعنى.

الفائدة الثَّامنة: أنَّ فتح مكَّةَ هو أعظم فتحٍ في الإسلام؛ لأنَّ النَّبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لم يُؤمَر في غزواته الأخرى بما أُمِر به في هذه السُّورة عَقِب فتح مكَّةَ.

الفائدة التَّاسعة: أنَّ ذكر بعض أفراد العامِّ لا ينفي عمومه؛ فالأحاديث الواردة في تفسير (النَّاس) أنَّهم أهل اليمن لا تفيد اختصاصهم بالدُّخول في الإسلام دون غيرهم؛ إذ قد دخل في الإسلام أقوامٌ آخرون سواهم.

الفائدة العاشرة: أنَّ خير الوفود الَّتي قدمت على النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في آخر عمره هم وفد اليمن؛ لتخصيصهم بالذِّكر في المجيء في حديث ابن عبَّاسٍ المذكور في تفسير

سورة النَّصر: «**جَاءَ الفَتْحُ، وَجَاءَ نَصْرُ اللهِ، وَجَاءَ أَهْلُ اليَمَنِ**».

الفائدة الحادية عشرة: بيان فضل أهل اليمن؛ لفضل وافدهم، مع مدح النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم جميعًا بقوله: «**قَوْمٌ رَقِيقَةٌ قُلُوبُهُمْ، لَيِّنَةٌ قُلُوبُهُمْ، الإِيمَانُ يَمَانٍ، وَالحِكْمَةُ يَمَانِيَةٌ، وَالفِقْهُ يَمَانٍ**».

الفائدة الثَّانية عشرة: أنَّ العامَّ قد يُطلَق ويُراد به بعض أفراده، ويسمِّيه الأصوليُّون: (عامٌّ أريد به الخصوص)؛ فـ(النَّاس) هم عبدة الأوثان من العرب على قول ابن عطيَّةَ.

الفائدة الثَّالثة عشرة: أنَّ دخول النَّاس في دين الله نوعان:

- **أحدهما**: دخول التزامٍ بحكمه؛ وهؤلاء هم من يدخله مسلمًا؛ كما اتَّفق هذا من قُريشٍ بعد فتح مكَّةَ، ومن هَوازنَ بعد غزاة حُنينٍ.

- **والآخر**: دخول إلزامٍ بحكمه؛ وهؤلاء هم الَّذين لا يُسلِمون، لكن تكون الولاية للمسلمين عليهم.

الفائدة الرَّابعة عشرة: بيان صحَّة هذا الدِّين وكماله؛ لأنَّ النَّاس يدخلون فيه أفواجًا أفواجًا، بخلاف غيره من الأديان الباطلة؛ فإنَّما يدخل فيها الواحد بعد الواحد.

الفائدة الخامسة عشرة: أنَّ ترك الكفر والتَّحوُّلَ إلى الإسلام يُسمَّى (دخولًا في الدِّين).

الفائدة السَّادسة عشرة: أنَّ قبول النَّاس للدَّعوة وانقيادهم لِمن يدعوهم إلى الله نعمةٌ عظيمةٌ تُوجِب على الدَّاعي شكرًا عظيمًا.

الفائدة السَّابعة عشرة: أنَّ تَعداد النِّعم أوفقُ في القيام بشكرها؛ فإنَّ النِّعمة إذا كُثِّرت فجديرٌ أن تُحدِث في قلب العبد شكرًا لها؛ ولهذا عدَّد اللهُ النِّعم في هذه السُّورة بقوله:

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ ۝٢﴾؛ فذكر نِعمًا ثلاثًا.

الفائدة الثَّامنة عشرة: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قد يُظهِر لبعض عباده ما يَعرفون به دُنوَّ آجالهم؛ كما وقع للنَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ممَّا هو مذكورٌ في تفسير هذه السُّورة؛ فعن ابن عبَّاسٍ قال: «لمَّا نزلت: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ إلى آخر السُّورة؛ نُعِيت لرسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ نفسُه حين أُنزِلت، فأخذ في أشدِّ ما كان اجتهادًا في أمر الآخرة».

الفائدة التَّاسعة عشرة: جواز نعي العبد نفسَه قبل الموت إذا رأى علاماته.

الفائدة العشرون: أنَّ هذا النَّعي ليس من الجزع وضعف القلب.

الفائدة الحادية والعشرون: أنَّ هذا النَّعي ليس من تمنِّي الموت الممنوع منه.

الفائدة الثَّانية والعشرون: أنَّ هذا النَّعي ليس من ادِّعاء علم الغيب؛ لتحقُّق علاماته الدَّالَّة عليه.

الفائدة الثَّالثة والعشرون: أنَّ هذا النَّعي ليس من التَّشاؤم المنهيِّ عنه.

الفائدة الرَّابعة والعشرون: أنَّ النَّعي الَّذي هو مجرَّد الإخبار بالموت ليس منهيًّا عنه، وإنَّما يُنهى عن نعيٍ يصحبه الجزع وذِكر مآثر الميِّت وتجديد الحزن عليه.

الفائدة الخامسة والعشرون: أنَّ المناسب للعبوديَّة في حقِّ مَن تقدَّم عمره وكبِرت سنُّه هو الازدياد من الطَّاعة؛ ليَقدُم على الله على خير حالٍ، وخلاف ذلك من أعظم الشَّرِّ؛ ولهذا ذُمَّ الأُشَيمِط الزَّان.

الفائدة السَّادسة والعشرون: أنَّ أفضل ما يُتزوَّد به من العمل في خاتمة العمر وآخره هو التَّسبيح بحمد الله واستغفاره.

الفائدة السَّابعة والعشرون: أنَّ الاستغفار ممَّا تُختَم به الطَّاعات؛ رجاء التَّجاوز عن تقصير العبد فيها.

الفائدة الثَّامنة والعشرون: أنَّ تسبيح الله وتنزيهه إنَّما يكون بما يُحمَد عليه، لا بما يَتوهَّمه البشر؛ كما ذُكِر عن بِشْرٍ المَرِيسيِّ من قوله: (سبحان ربِّي الأسفل)! تعالى الله عمَّا يقول علوًّا كبيرًا.

الفائدة التَّاسعة والعشرون: أنَّ الجمع بين التَّسبيح والاستغفار أفضل من الاقتصار على أحدهما.

الفائدة الثَّلاثون: أنَّ (الرَّبَّ) من أسماء الله الحسنى.

الفائدة الحادية والثَّلاثون: أنَّ (الرُّبوبيَّة) من صفاته عَزَّوَجَلَّ.

الفائدة الثَّانية والثَّلاثون: أنَّ (التَّوَّاب) من أسماء الله عَزَّوَجَلَّ.

الفائدة الثَّالثة والثَّلاثون: أنَّ (التَّوْب) من صفاته عَزَّوَجَلَّ؛ فهو الَّذي يوفِّق العبد للتَّوبة، ثمَّ يقبلها منه.

الفائدة الرَّابعة والثَّلاثون: أنَّ التَّوبة لا تختصُّ بالإقلاع عن فعل السَّيِّئات؛ بل من التَّوبة: التَّوبة من ترك الحسنات.

الفائدة الخامسة والثَّلاثون: أنَّ التَّوبة لا يُؤمَر بها أحدٌ دون أحدٍ؛ بل النَّاس كلُّهم مأمورون بها، لا فرق بين مطيعٍ وعاصٍ.

الفائدة السَّادسة والثَّلاثون: أنَّ من تاب تاب الله عليه؛ لأنَّ الله أمرنا بها، وسمَّى نفسه (توَّابًا)، ومِن توبته على العبد أن يَقبل ذلك منه.

الفائدة السَّابعة والثَّلاثون: أنَّ الاستغفار توبةٌ؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أمر به النَّبيَّ

صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثمَّ ختم باسم (التَّوَّاب)؛ منبِّهًا على اندراج الاستغفار في التَّوبة.

الفائدة الثَّامنة والثَّلاثون: أنَّ (كان) إذا دخلت على الأسماء الإلهيَّة والصِّفات الرَّبَّانيَّة لا تُوجِب نفيًا؛ بل تفيد استمرارًا ودوامًا؛ فالله عَزَّوَجَلَّ توَّابٌ، ولا يزال توَّابًا.

الفائدة التَّاسعة والثَّلاثون: أنَّ الله لا يزال بصفاته أبديًّا كما كان عليها أزليًّا، والمراد بـ(الأبد): الزَّمن المستقبل، و(الأزل): الزَّمن الماضي.

الفائدة المكمِّلة للأربعين: أنَّ ظهور النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على قومه وفتحَه مكَّةَ دليلٌ على صدق نبوَّته؛ إذ لو كان كاذبًا لم يُظهِره الله عليهم وهو يزعم ما يزعم.

وهذا آخر التَّقرير على كتاب «تفسير سورة النَّصر» للحافظ ابن رجبٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ.

نسأل الله التَّوفيق للإعانة، والفضل والزِّيادة، وأن يُمدِّنا بواسع كرمه وفضله، وأن يتولَّانا في الصَّالحين.

والحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله وسلَّم على عبده ورسوله محمَّدٍ، وآله وصحبه أجمعين [1].

(١) تمَّ التَّعليق على الكتاب في مجلس واحدٍ، بعد الفجر يوم الخميس العاشر من جمادى الأولى، سنة أربعٍ وعشرين بعد الأربعمائة والألف، في جامع الإيمان بحيِّ النَّسيم بمدينة الرِّياض، ومدَّته: ساعةٌ واثنتان وأربعون دقيقةً.

فَوَائِد

فَوَائِد

فَوَائِد

فَوَائِد